

2014 04 07

من دون أي رتق لجلستنا السابقة بادرت هيلاري كعادتها إلى التقاط مناقشتنا من دون أي مساعدة من جانبي قائلة: بدأت عام 2011م في البرازيل حاضرة حفل تنصيب ديلما روسيف. أوفدني الرئيس أوباما لتمثيل الولايات المتحدة، كانت روسيف المرأة الأولى التي تحكم بلدها، البرازيل متقدمة على الولايات المتحدة من هذه الناحية، قد نتمكن من اللحاق بها ذات يوم.

انتظرت قيام هيلاري بإطلاق تعليق ما حول احتمال توليها لرئاسة الولايات المتحدة، إلا أنها بقيت صامته بعناد، مثل الآخرين جميعهم كنت متشوقة لأعرف، ومثل الآخرين جميعهم أيضاً كان سيتعين علي أن أنتظر، في إحدى المرات أخطأتُ وسألتها عما إذا كانت ستترشح أجابتنني: ليتني كنت أعلم.

منتصف كانوا الثاني/يناير، حزمت حقائبني من جديد وجررت نفسي إلى الشرق الأوسط، زائرة اليمن، وعمان، واتحاد الإمارات العربية، وقطر، ومستخدمة لغة استثنائية الفظاظلة في مؤتمر الدوحة، انتقدت إخفاق الحكومات العربية في التحرك بوتائر أسرع نحو الإصلاح، قائلة إن الأسس في العديد من الأمكنة بالغة الضعف والهزال، الشرق الأوسط الذي تصورته يقوم

على قاعدة أصلب كي يتمكن من التجذر والنمو، لم يكن العرب راضين تماماً عن ملاحظاتي.

زيارتي لليمن، الأولى لأي وزير خارجية أمريكي منذ عشرين سنة، دفعني إلى التشديد على أخطار الإرهاب في ذلك البلد، في جولة مرتجلة داخل مدينة صنعاء القديمة المسورة سرني هتافات تلاميذ المدارس الهاتفين ترحيباً بي، لا شيء أعذب من محبة الأطفال الصغار، جعلوني أشتاق لتشلسي الصغيرة - التي لم تعد صغيرة هذه الأيام - حتى أكثر مما هو مألوف.

لدى انطلاق الاحتجاجات المصرية في عام 2011م، كنت في طليعة أصحاب الردود من الإدارة، تصريح العلي في الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير الذي قلت فيه إن حكومة الرئيس حسني مبارك مستقرة و«عاكفة على البحث عن طرق لتلبية الحاجات والمصالح المشروعة للشعب المصري» انتُقد في وسائل الإعلام؛ إذ عُدَّ فاتراً ومتخلفاً عن وتيرة الأحداث، مع أن آخرين وافقوا على عدم جواز اضطلاع الولايات المتحدة بدور بارز في تقويض حكومة حليف قديم.

من المؤكد أنني كنت في مزاج نقدي، وفكرت: إذا قلت كلما قال أحدهم كلاماً ينتقيني فيه، فإن من شأنني أن أهلك، يبدو أن جلدي بدأ يزيد سُمكاً. في اليوم التالي هاجمت حظر الحكومة المصرية مواقع التواصل الاجتماعي، ومع حلول نهاية كانون الثاني/يناير، حملني الرئيس أوباما مسؤولية جلاء رد الإدارة المشوش على التطورات الجديدة في مصر.

في الثلاثين المحموم من شهر كانون الثاني/يناير، ظهرت على شاشات خمس برامج تلفزيونية صباح يوم الأحد، في ما يشبه نوعاً مما يعرف بـ (غينسبرغ كامل)، أعلنت للملا - للمرة الأولى - وجهة نظر الولايات المتحدة القائلة بالحاجة إلى نوع من (الانتقال المنتظم) إلى (حكم ديمقراطي قائم

على المشاركة) وإلى (نوع من التحول السلمي إلى الديمقراطية الحقيقية) في مصر.

ثم ما لبثت أن وجدت نفسي على الطريق إلى هاييتي لإحياء ذكرى زلزالها المرعب، شابكة الرحلتين الجويتين في اتصالات جماعية حول مصر. يا إلهي! أناشذك يا دكتورة! يتعبني إخبارك عن هذا كله، ألم تلمي وتتعبني بعد من الاستماع؟

محركة رأسي يميناً ويساراً قلت، وكنت صادقة فيما قلته: لا، أجد الأمر ساحراً، وأشعر بميزة متابعة رحلتك عبر التاريخ. أتعلم منك أشياء كثيرة. أدارت وجهها نحو الجدار، قدرتُ أنها كانت تحاول إخفاء دموعها.

